

محاضرة في الواقعية الطبيعية

تعريف الواقعية الطبيعية :

هو مذهب جاء تطورا للواقعية النقدية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وهي تتسم بتطبيقها النظريات العلمية على الحقائق الاجتماعية والانسانية ، منطلقين من مبدأ ان للفن رسالة، كانت فرنسا المهد الاول لنشوئه وتحديد مفهومه وخصوصا بعد ان انتهى إلى (أميل زولا) الذي صار الأب الشرعي له منذ نشر مقدمه الطبيعة الثانية لرواية (تيريز راكان) عام ١٩٦٨ بل صار منذ ذلك الحين رائد الرواية التجريبية العلمية دون منازع.

س/ لما اطلق الكتاب حكما بأن الطبيعية هي مذهب زولا على الرغم من وجود كتاب سبقوه في ذلك ؟

ج/ جزم بعض الكتاب على ان الطبيعية هي مذهب زولا بما تتضمنه من معالجة عملية وتتطلبه من فلسفة مادية حتمية بينما كان من سبقه من الواقعيين اقل وضوحا واتقانا في ولاءاتهم الفلسفية ولقد كتب زولا يقول (لا اريد أن أقرر شأن بلزك كيف يجب ان يكون نظام الحياة البشرية ولا ان اكون سياسيا او فيلسوف او اخلاقيا ان اللوحة التي ارسمها تحليل بسيط لشريحة من الواقع كما هو).

س/ ما هي دعوات زولا في كتاباته لتطبيق مذهب الواقعية الطبيعية ؟

ج/ دعا زولا في كتاباته الروائية والمسرحية الى محاكاة العلماء في مختبراتهم في النتائج والحقائق التي سعى الى كشفها كتاب القصة والمسرحية وقد أودع آراءه تلك في كتابه الذي أصدره عام ١٨٨٠ وهو (القصة التجريبية).

وربما كانت الدعوة إلى الطبيعة بأثر من الفلسفة التجريبية التي وضع مبادئها جون ستيوارت ميل والداعية الى المعرفة المثمرة هي الحقائق وحدها وان العلوم التجريبية هي التي تمدنا بالمعارف اليقينية.

والطبيعية في الادب علي امعان شديد بالواقعية ولقد لجأ زولا في كتابة رواياته الى تجارب علم الطبيعة واخذ بقوانين علم الوراثة اذا عني بالمظهر الفسلجي لشخصه وادعى بان (الاخلاق والعواطف محكومة حكما حتميا بقوانين مناظرة لهذه القوانين

التي تحرك البايولوجي والفسيولوجي وتكون القصة من هنا ملحقة بالتاريخ الطبيعي والطب وتخضع كما يخضع هذان العلمان الى منهج مزدوج من الملاحظة والتجريب.

س/ يقول النقاد ان الطبيعية ليست سوى ثمرة من ثمرات التقدم العلمي ، ما المقصود بذلك؟

ج/ ان الطبيعية ليست سوى ثمرة من ثمرات هذا التقدم العلمي المطرد الذي استثمره زولا وزملاؤه لصالح الادب الروائي فكانت الملاحظة الدقيقة مكان التخيل الفني وكان الحس الحقيقي مكان الحس الانفعالي وتحول كل ذلك الى وضع ادبي يخضع لمستجدات التجربة المعيشية والمعاناة على السواء. ومن قبل ذلك كان لفلسفة (اوجست كونت) تأثيرها الفاعل في دفع الادب الى ميادين العلوم التجريبية.

ولقد كانت الصلة بين الادب وبين علم الوراثة التي وضع مبادئها (تين) في نظريته القائمة على تحقيق الصلة بين الادب من جهة وبين الوراثة والبيئة والزمان واحدة من العوامل التي تركت اثارها في المذهب الطبيعي ويعزي بعض الكتاب قيام هذا المذهب (في كل من القصة والمسرح الى ما فرضه قانون تنازع البقاء ومحاولة كل انسان ان يحيا حياة مادية اوسع ثراء و اكثر اغتناء من حياة غيره من اخوته في القطيع الانساني بل هو يتوسل دائما الى تلك الحياة بمص دماء هؤلاء الضعفاء عن طريق التجارة والصناعات الاحتكارية وتسخير العمال المساكين في المصانع والحقول وسوقهم اليها كما تساق الماشية لقاء دراهم لا تكاد تمسك عليهم رمقهم وهم يربطون بين تنازع البقاء على هذه الصورة وبين البيئة ولا سيما البيئة التي يسود فيها الافتراس الاحتكاري على هذا النحو وهو افتراس يخلق الفقر والمرض والجهل ويجعل من ابناء الطبقة الدنيا ذرية ضعافا لا يرثون عن اباائهم وأمهاتهم إلا الضعف والأمراض والخبال.

س/ ما هي اهم خصائص المذهب الطبيعي:

ج/ تتميز المذهب الطبيعي بمجموعة من الخصائص التي ينفرد بها دون غيره من المذاهب:

١- وأولى هذه الخصائص، إدخال الطبيعيين في الأدب الطرق العلمية الخاصة بالطبيعة وما يتصل بها من وسائل، تستعين بها على رقد منهجها العلمي في الوصول إلى تحقيق أهداف الواقعية.

٢- حلل الطبيعيون في أدبهم، عيوب المجتمع بالدقة التي يستعملها عالم الطبيعة، وذكروا أن وظيفة الأدب هي دراسة وكشف القوانين التي تخضع لها حياة الفرد، وهي القوانين الاجتماعية التي اعتمدها الواقعيون النقديون.

٣- عني الطبيعيون بدراسة البيئة الاجتماعية منطلقين في ذلك من أيمانهم بتأثيرها في المجتمع ، فقد درسوا الجوانب الضيقة في الوسط الاجتماعي، الذي اقتصر على المنحط منه، مما صار هدفاً في انتقادهم، وربما كان هذا التصوير، وسيلة للكشف عن طبيعة أبطالهم ونماذجها السيئة التي وجدوها تشكل ظاهرة في المجتمع.

٤- اقتفى الطبيعيون في تصويرهم للنفس البشرية أثر المفهوم المادي اللفظ المعروف والمنسوب الى تين والقاتل : ((ان الفضائل والردائل هي منتوجات مثلها مثل حامض الكبريتيك والسكر)) وكأنهم ينفون الشرط الاجتماعي للشخصيات البشرية وللاخلاق الاجتماعية .

٥- في نقدهم الأدبي، رفض الطبيعيون الفكرة القائلة بالإبداع والخلق واستعاضوا عنها بالوثائق الدقيقة في العمل الأدبي.

٦- كما رفضوا اختيار الموضوع الأدبي، إن كل موضوع يصلح في نظرهم مادة للتجربة الإبداعية، ولكن ذلك انحدر بهم إلى المستويات الرخيصة التي يرفضها الدين، ويأبأها العرف،

٧- لقد فرق الطبيعيون بين الملاحظة والتجربة، إذ الملاحظة عندهم، استخدام وسائل البحث لدراسة الظواهر الطبيعية كما هي دون تغيير، والتجربة، استخدام نفس الوسائل بقصد التغيير والتبديل، للوصول إلى غاية، ويرجع الفضل في هذا إلى (زولا) نفسه، الذي فرق أيضاً بين القصة التجريبية والعلم التجريبي. ورفض كذلك أن يكون القاص مصوراً فحسب، إذ لا بد له من التأويل.

٨- ويرفض الطبيعيون، أن يضعوا لقصصهم نهايات واضحة، وكذلك يرفضون إظهار عواطفهم فهم حياديون انطباعيون موضوعيون يكتفون بعرض الحقائق عرضاً موضوعياً على المجتمع لينبها إلى أخطائها.

٩- يسعى الطبيعيون، إلى تأكيد الإحساس بالحقيقة أكثر من سعيهم إلى تأكيد الإحساس بالجمال

١٠- كان للمذهب الطبيعي نشاط واسع في المسرح، ويعد (ابسن)، الرائد الأول لهذا المذهب في كتابه المسرح كما يتميز من كل كتاب المسرح الطبيعيين الذين انحدرت مسرحياتهم إلى حضيض الموضوعات الهابطة، التي لا تتقيد بدين أو عرف أو تقليد.

س/ ما سمات المسرح الطبيعي ؟

• تتاول المسرح الطبيعي الموضوعات العادية التي تزخر بها الحياة الاجتماعية

• واعتمد البعض في تصوير شخصياتهم، أسلوب تحليلي ينتهي دائماً إلى تعقيد القواعد، وهذا يختلف عن أسلوب الطبيعيين الآخرين الذين لم يعنوا بالقواعد والقوانين في تصوير شخصياتهم، فهم ينقلون من الحياة صورة طبيعية صادقة بعيدة عن قيود الشرائع والآداب، والأعراف.

• اعطوا الدور الاستثنائي والبارز في اعمالهم الادبية لكل ما هو مرضي وشاذ .

• صوروا ازمة الانسان الغربي في عصر فقد فيه الايمان بالدين والمعتقدات والقيم والاخلاق في مقابل الغرور ببريق العلم مبهورين بما حققه العلم من انجازات مادية مذهلة ، فقد وجد في العلم ملاذا للخلاص من ازماته .

• ظهر تزيف الواقع والحياة من خلال زعمهم ان الحياة والواقع شر وفساد ، ولاوجود للخير ، وكل ما في الحياة سراب خادع وبريق زائف يركبها الانسان الشرير بطبعه ليحقق مصالحه المادية ، وليسخر من الآخرين .

س/ ما هي عيوب المذهب الواقعي الطبيعي حسب رأي نقاده؟

١- أن تفسير مصير الإنسان من الزاوية الفسيولوجية، أفقده الكثير من عناصره الإنسانية، ذلك لأن الإنسان، بوصفه جزء من المجتمع البشري أقرب إلى العنصر الاجتماعي منه إلى العنصر الفسيولوجي.

٢- فهم الطبيعيون متطلبات (الدقة) و(العملية) في التصوير، فهماً ضيقاً وساذجاً وذلك بسبب تطبيقهم قوانين البيولوجيا في قصصهم، وأوصلهم هذا إلى عدم الالتزام بالطباع البشرية والأخلاق الاجتماعية، واستبدلوه بالقوانين الفسيولوجية، مما أبعدهم عن ميدان التحليل النفسي، الذي وجدناه لدى الواقعيين النقيبين.

٣- أما البطل لديهم: فقد افترق إلى (النموذجية) التي استطاعت الأنواع الواقعية الأخرى توفيرها، فغالباً ما يتعرض البطل في قصصهم إلى الهلاك المترتب عن العجز عن مقاومة الوسط الخارجي، بل وعن مقاومة تفاهات الحياة اليومية البسيطة، فالبطل تتنابه غالباً حالة تأملية ولا مبالاة اجتماعية وبرود مطلق أمام الخير والشر، مما يقربه من أبطال مؤلفات الانحطاطيين، وهنا تعد مسألة (البطل) عند الطبيعيين سبباً في انهيار الشخصية الأدبية المريضة التي تخضع لوسطها دون مقاومة.

٤- تحطيم الشخصية الأدبية، في الرواية الطبيعية، وهذا يعد سبباً في إضعاف البناء الفني لها، فالسرد وتطور الأحداث اللذان عرفناهما في الرواية الواقعية، يختلفان أمام الوصف التفصيلي وتصبح الرواية خالية من الوحدة المتكاملة التي هي ضرورة في الرواية الفنية الناجحة.

٥- أدى اعتماد الطبيعية على التجارب والأبحاث العلمية، وتعميم نتائجها، إلى اصطناع الحياة التي صورتها تلك القصص، كما أضفت سلوك البطل فيها لمقتضيات منهجها وأفكارها.

٦- عجز الطبيعيون عن أن يختاروا من الحياة تلك المادة الصالحة للتوصل إلى استنتاجات فنية